الفصل الثالث

"إخناتون" أول "ثورى"
فى العالم يسعى لصياغة "توحيد" عالمى

ويشمل:

(أ) تمهيد.

(ب) "إخناتون" ثائرا على التقاليد اللاهوتية.

(جـ) "نزعة التوحيد" عند إخناتون.

(د) تعقيب

(أ) تمهيد:

احتل "آمون" إله طيبة المحلى القديم فى عهد "أمنحوتب الثالث" المكانة الأولى فى علم لاهوت الدولة، بالنسبة إلى المركز الأعلى الذى كانت تحتله الأسرة الحاكمة بالمدينة موطنه، فى الإمبراطورية.

ومن وجهة علم اللاهوت، فإنه خضع منذ زمن طويل للنزعة القديمة التى كانت تتعرف هوية الآلهة المحليين القدامى فى إله الشمس، وكان قد أطلق عليه منذ عهد بعيد "آمون-رع"، وقد حلت محل خصائصه المحلية القديمة، خصائص إله الشمس، وصبغ آمون المحلى القديم بالصبغة الشمسية تماماً.

وبهذه الطريقة كان من المستطاع رفعه إلى المنزلة العليا فى تجمع الآلهة، فأصبحت له المكانة الأولى بين الآلهة، وأدمج " أمنحوتب الثالث" طوائف كهنة كل المعابد فى البلاد، فى منظمة كهنوتية واحدة ، وعلى رأسها وضع كاهن آمون الأعلى[1]؛ وكانت هذه أقدم طائفة كهنة قومية عُرفت حتى ذلك الحين فى الشرق الباكر فى مصر القديمة.

وعندما خلف " امنحوتب الرابع" أباه" امنحوتب الثالث"، حوالى عام ١٣٧٥ ق.م.، قام نزاع حاد بين البيت المالك من جانب والمنظمة الكهنوتية التى يسيطر عليها آمون، من جانب آخر، ومن الواضح أن الملك الشاب "امنحوتب الرابع (اخناتون) " كان يميل إلى مطالب إله الشمس القديم، وهى تتعارض مع مطالب آمون.

وفى بواكير حكمه نجده يعضد فى حماس صورة جديدة من عقيدة الشمس القديمة يحتمل أنها كانت حلا وسطا بين الاثنتين، وخصص نفسه للمذهب العللى الشمسى الجديد، فأضفى على إله الشمس تعريفا، حرر العقيدة الجديدة من تقاليد علم اللاهوت الشمسى القديم، التى تتعدد فيها الآلهة؛ فى حل وسط، لقد أصبح الآن يطلق عليه "آتون" وهو إسم قديم للشمس المادية، وربما كان يدل على قرصها.

---

[1] حابو سنب، أول كاهن أعلى لآمون،الذى احتل المنصب على رأس التنظيم الكهنى الجديد، وكان الوزير الأكبر فى عهد الملكة حتشبسوت.

وبذل اخناتون جهداً لجعل اسم "آتون" معادلاً فى بعض الصيغ القديمة للفظ "إله"، ولهذا أصبح يطلق الآن على التعبير التقليدى "قربان إلهى" (حرفياً "قربان الإله")، "قربان آتون"[1].

ولم يأخذ إله الشمس اسماً جديداً وحسب، ولكن الملك الشاب "اخناتون" أضفى عليه رمزاً جديداً أيضاً، إن أقدم رمز لإله الشمس كان هرماً وصقراً، ويصور الرمز الجديد الشمس كقرص تشع منه إلى أسفل أشعة منحرفة، وكل شعاع ينتهى بيد آدمية، ويوحى هذا الرمز بقوة تنبعث من مصدرها السماوى وتضع يدها على العالم وشئون الناس.

ولإدخال عقيدة آتون فى طيبة، أقام أمنحوتب الرابع (اخناتون)، هناك معبداً رائعاً للإله الجديد، وأوقف عليه أوقافاً سخية من الخزانة الملكية، وسرعان ما نشبت أشد العداوات خصومة بين الملك وبين كهنة آمون، انتهت بإصرار الملك على جعل آتون إلهاً أوحد للإمبراطورية، وتشتيت شمل آمون.

ولقد نتج عن الجهد الذى بُذل لمحو كل أثر لوجود آمون، أنْ غير الملك اسمه من "امنحوتب" (آمون يرتاح "أو" "يرضى") إلى "إخناتون" ومعناه "أتون راضى" وهو نقل الاسم القديم للملك إلى فكرة مماثلة فى عقيدة آتون، وحتى اسم والد الملك، أمنحوتب الثالث، لم يُحترم، حتى لفظ "آلهة" كجمع، مُحى أينما وجد، وجرت على أسماء الآلهة الأخرى، أيضاً نفس المعاملة التى لقيها آمون[2].

(ب) "إخناتون" ثائرا على التقاليد اللاهوتية:

ولما وجد "إخناتون" إن طيبة قد أثقل كاهلها بالكثير من التقاليد اللاهوتية، على الرغم من مكانتها وبهائها، فقد هجرها وأقام عاصمة جديدة تقع على التقريب فى منتصف المسافة بين طيبة والبحر، فى مكان يعرف، على ماهو شائع الآن بتل العمارنة، وقد سماها "آخت أتون" أى "أفق آتون"، وأصبح اسم إله الشمس هو الاسم الإلهى الوحيد الذى يوجد فى المكان، وكان الغرض منه فيما يتضح أن يكون

---

[1] راجع برستيد (جيمس هنرى): تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى سوس، دار الكرنك، القاهرة، ١٩٦١، ص ٤٢٧، ٤٣٠.

[2] راجع برستيد (جيمس هنرى): تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى سوس، دار الكرنك، القاهرة، ١٩٦١، ص ٤٢٧، ٤٣٠.

مركزاً لنشر مذهب التوحيد الشمسى، ولم يكتف الملك الشاب بهذا فقط، بل أسس مدينة لآتون مماثلة فى النوبة، وآخرى فى آسيا، وبهذا أعطى كل قسم من الأقسام العظمى فى الإمبراطورية - مصر والنوبة وسوريا - مركزاً للعقيدة الآتونية، وبخلاف هذه، فقد أُقيمت لآتون هياكل فى أمكنة أخرى متنوعة فى مصر[1].

وما كان ليتسنى لإخناتون إنجاز هذا، دون تكوين حزب قوى للقصر يستطيع ترجيهه ضد طوائف الكهنة المطرودين وخاصة كهنة آمون، إن حياة حزب القصر هذا، التى كشف عنها القناع الآن فى "آخت آتن" كانت تتركز حول نشر العقيدة الجديدة، وتؤلف نقوش الحيطان البارزة التى تزخر بها المقابر التى حفرها الملك الشاب، تؤلف أجمل فصل شيق فى قصة الشرق القديم[2]

وتحتوى هذه القبور على سلسلة من الأناشيد فى حمد إله الشمس (أتون)، أو إله الشمس والملك، على التبادل؛ وهو ما يسمح لنا على الأقل بلمحة من عالم الفكر الجديد الذى نشاهد فيه هذا الملك الشاب ورفاقه يرفعون أعينهم ويحاولون أن يتبينوا الله فى مدى قوته التى لا تحد، الله، الذى لم يعد بعد إله وادى النيل فقط بل إله كل الناس وكل العالم.

(جـ) "نزعة التوحيد" عند اخناتون

وليس أفضل من أنْ ندع هذه الأناشيد تتحدث عن نفسها[3] وتُعرفنا قسمات الثورة التى قادها وصاغها إخناتون فى ذلك الوقت.

---

(1) برستيد، آثار النوبة السودانية "ص٥١ - ٨٢.

(2) كانت هذه القبور تُزار كثيراً وتُدرس، وقد نشرت فى أجزاء متناثرة، ولم توجد، مع هذا، أية طبعة كاملة حتى عام ١٩٠٣، عندما نشر "ديفس" كتابة القيم "مقابر العمارنة الصخرية" مجلدات ١-٦ لندن ١٩٠٣ التى تحوى كل شئ فى العمارنة فيما عدا موقع المدينة وقبر الملك، ويقدم لنا هذا الكتاب القيم عرضاً للموقف فى العمارنة من الوجهة التاريخية، وخاصة الحياة فى القصر، فى البيئة الجديدة، التى صاغها الملك الشاب، "إخناتون"

(3) إنْ أحسن هذه الأناشيد، هو نص ديفس، عمارنة ٦ لوح ٢٩، راجع برستيد، Dehymnis in solem- sub rege Amenophide IV , conceptis, Berlin, 1894.

تقول أطول وأهم هذه الأناشيد ، تحت عنوان " بهاء آتون الـــذى يعمـــم الكون وقوته":

"إن طلوعك جميل فى أفق السماء
ياآتون، يابادئ الحياة
عندما تصعد فى الأفق الشرقى.
تضفى على كل أرض جمالك.
إنك جميل، عظيم، تلمع عالياً فوق كل أرض.
إنَّ أشعتك تحوط الأقدار وتحوط كل ما أوجدته.
إنك تحكم وثاقهم بحبك".

وفى مقطوعة أخرى بالغة الجمال نقرأ: عن أتون أنه:

" خالق الجرثومة فى المرأة.
صانع البذرة فى الرجل.
معطى الحياة للوليد فى جسم أمه.
تدخل السكينة إليه حتى لا يجهش بالبكاء.
وترضعه (حتى) فى الرحم".

وعن "خلق الحيوان" تقول مقطوعة أخرى من أناشيد أتون:

" عندما الفرخ فى البيضة يسقسق فى القيض.
تعطيه النفس داخلها لتحفظه حياً.
وعندما تكون قد جمعت بعضه إلى البعض الآخر.
إلى(الحد الذى) يدفعه فى البيضة.
فإنه يخرج من البيضة.

= وتقسيم هذه الأناشيد إلى مقطعات معنونة، من وضع برستيد نفسه (تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ص ٤٣٢-٤٣٣.)

ليسقسق بكل مالديه من جهد.
ويسعى هنا وهناك فوق ساقيه.
عندما يكون قد خرج منها".

ونصل إلى أعمق المضامين التى تحويها مقطوعات هذه الأنشودة، والتى تتحدث عن "خلق العالم" فتقرأ:

" كم عديدة هى أعمالك!
إنها خافية (عنا).
أيها الإله الأوحد، الذى لا يملك قواه أحدٌ غيره.
لقد خلقت الأرض وفقاً لمشيئتك.
عندما كنت وحيداً.
الناس وكل الماشية، الكبير منها والصغير.
كل ما يوجد على الأرض.
التى تسعى هنا وهناك على سيقانها.
وكل ما كان على ارتفاع.
تلك التى تطير بأجنحتها.
إنك تقر كل إنسان فى مكانه.
إنك تمدهم بحاجاتهم.
وكل إنسان لديه متاعه.
وأيامه معدودة.
والألسن تتنوع فى الكلام.
وصورهم كذلك وبشراتهم يتميز بعضها عن البعض الآخر.
(إذ) أنك جعلت الغرباء يتباينون.
أنت سيد كل أرض، الذى تشرق لأجلهم.
أنت شمس النهار، العظيم فى جلالك.

إن جميع الأقطار القاصية.
إنك تصنع (أيضاً) حياتها.
لقد وضعت نيلاً فى السماء.
وعندما يسقط لأجلهم فإنَّه يصنع أمواجاً على الجبال.
أشبه بالبحر الأخضر العظيم.
يروى حقولهم فى بلدانهم.
ما أروع تدابيرك، ياسيد الأبدية.
يوجد نيلٌ فى السماء لأجل الغرباء.
ولأجل ماشية كل قطر، تسعى على سيقانها.
(ولكن) النيل، إنه يأتى من العالم السلفى، لأجل مصر".

"وأتون" فى هذه الأناشيد التى تركها لنا المصرى القديم ممثلاً فى ملكنا الشاب "إخناتون" مسئول عن تعاقب الفصول، ويجب على البشر أن يتأملوا صنعته الواضحة فى كل شئ، وما أجمل ما تصوره لنا المقطوعة التالية من هذه المعانى:

" إن أشعتك تغذى كل حقيقة.
عندما تشرق، فإنها تعيش .
إنك أنت الذى تنميها.
إنك تصنع الفصول.
حتى تخلق كل عملك .
الشتاء ليجلب لهم البرد.
والحر حتى يمكنهم أنْ يتذوقوك.
إنك جعلت السماء القصى يرتفع هناك.
حتى يشاهدوا كل ماصنعته.
أنت وحدك وأنت تضئ فى صورتك كآتون الحى.
تطلع وتلمع وتذهب بعيداً وترجع.

إنك تصنع الملايين من الصور.
عن طريقك وحدك.
المدن والبلاد والقبائل والطرق العامة والأنهار.
كل العيون تراك أمامها.
لأنك آتون النهار فوق الأرض.".

ونصل مع هذه المقطوعات إلى ترنيمات جميلة يناجي فيها " إخناتون" "آتون" بقوله:

"إنك فى قلبى.
لا يوجد آخر يعرفك .
سوى ابنك إخناتون.
لقد جعلتة حكيما.
فى تدابيرك وفى جبروتك.
إنَّ الناس يحيون بك.
بينما عيونهم تقع على جمالك.
إلى أن تغرب.
إنَّ لكل عمل يُرجأ.
عندما تغرب فى الغرب.
لقد وطدت دعائم العالم.
وتنشئهم لأجل ابنك.
الذى خرج من أعضائك.
ملك مصر العليا ومصر السفلى.
الذى يعيش فى الحق، سيد القطرين.
نفر- خبرو-رع،وع - إن - دع (إخناتون)
ولأجل الزوجة الملكية الأولى، محبوبته.

سيدة القطرين. نفر - نفرو - أتون، نفرتيتى.
تعيش وتزدهر إلى الأبد."

(د) تعقيب

ونحن واجدون فى مثل هذه الأناشيد مذهباً عالمياً ملهماً، لا يوجد قبل ذلك فى دين مصر، وفى مجاله ينتظم العالم كله، إنَّ الملك يدعى بأن الاعتراف بسيادة إله الشمس العامة هو أيضاً عام، وأَنَّ كل الناس يعترفون بحكمه، ويقول عنهم، إن آتون صنعهم لأجل نفسه خاصة، يحملون جزيتهم فوق ظهورهم، لذاك الذى أوجد حياتهم، ذاك الذى يعيش الناس بأشعته ويستنشقون الهواء.

من الواضح أن إخناتون كان يضع الخطة لدين عالمى، ويحاول أن يجعله يحل محل القومية التى سبقته مدى عشرين قرنا.

ومع هذه السلطة العامة، فإن إخناتون متأثر تأثرا عميقا ببقاء الإله الأبدى، ومع أنه هو نفسه، يتقبل فى هدوء قضاء الموت عليه، وفى بواكير حياته العملية فى تل العمارنة يعلن ويسجل بصفة دائمة تعليمات عن دفنه، فإنه مع هذا، يعتمد على علاقته الوثيقة بـ"آتون" لتضمن له شيئا من بقاء إله الشمس.

وتتناول الأناشيد مسألة خلق العالم، قائلة أنه أنجز بينما كان الإله لا يزال وحيدا، وأن "آتون" خالق الكون، أوجد كل سلالات الإنسان، وميزهم فى اللغة، وفى لون البشرة، وأن قوته الخالقة لا تزال مستمرة، توجد الحياة حتى من البيضة التى لا حياة فيها، ففى داخل "نواة" البيضة التى لاحياة فيها، تستجيب أصوات الحياة إلى أمر آتون!، وعن طريق التغذى بالنفس الذى يعطيه، يخرج كل كائن حى.

إن هذه القوة، معطية الحياة، هى مصدر الحياة الدائم، وعاملها المباشر هو أشعة الشمس، ففى هذه الأشعة يكون آتون موجودا على الأرض كقوة خيرة، وإذا جلى على هذا النحو، تحب الأناشيد أن تطيل فى ذكر قوته التى تشمل الكون، والتى تكون أبدا حاضرة. "إنك فى السماء، ولكن أشعتك على الأرض"، "إن أشعتك تضم الأراضى، وحتى كل ما صنعته" ، " وسواء أكان فى السماء أو على الأرض، فإن كل العيون تشاهده دون (انقطاع)، إنه يملأ (كل أرض) بأشعته،

ويجعل كل الناس يعيشون، أدعو أن تقر عيناى كل يوم بمشاهدته، عندما يطلع فى بيت آتون هذا ويملؤه بذاته هو بأشعته، وهو جميل فى الحب، ويضعها على فى حيلة راضية إلى الأبد"[1]

ويقول إخناتون أيضا:

"ابنك (الملك) الذى خرج من أشعتك،

نقد صغته من أشعتك أنت،

عندما ترسل أشعتك، فإن القطرين يكونان فى أفراح عيد"

فى هذه العبارات، يعبر الملك (إخناتون) نفسه عن وعيه الخاص بحضور الإله، وخاصة فى المعبد، عن طريق أشعته، إن اعتماد مصر، الواضح على النيل جعله من المستحيل تجاهل عامل الحياة هذا.

وفى رأينا أنه لايوجد شئ يكشف بوضوح عن مذهب إخناتون العقلى، الذى يدعو إلى الدهشة والتقدير، أكثر من واقعة أنه يحذف، دون تردد، مجموعة الأساطير التقاليد المبجلة التى ألهت النيل بوصفه أوزوريس؛ وينسب الفيضان إلى قوى طبيعية يتحكم فيها إلهه الذى، فى رفق مماثل نحو الأقطار الأخرى، صنع نيلا لأجلنا فى السماء.

إن هذا الاعتراف بحدب آتون ورفقه الأبوى بكل المخلوقات، هو الذى يرفع حركة إخناتون شوطا بعيدا فوق كل ما وصل إليه الناس فى دين مصر، أو الشرق كله قبل هذا الزمن: "إنك أب وأم كل ذلك الذى صنعته"، إنها فكرة تنبئ مقدما عن كثير من التطور فى الدين الذى جاء بعد ذلك، حتى إلى زمننا الحاضر.

إن صورة الماشية وهى ترقص فى ابتهاج، و الأطيار وهى تنشر أجنحتها وترفعها تمجيدا لأتون الحى، والأسماك وهى تقفز فى النهر لتحيى الضوء، والنور الذى يعم الكون الذى توجد أشعته حتى "فى وسط البحر الأخضر العظيم" إن كل هذا يكشف عن تبين حضور الله فى الطبيعة، وعن تقدير لوحى الله فى العالم المنظور.

ومن الواضح أنه على الرغم من الأصل السياسى لحركة إخناتون هذه فإن أعمق مصادر القوة فى هذه الثورة الرائعة توجد فى هذا الرجوع للطبيعة، إن

---

[1] راجع ديفس، عمارنة ٥ اللوح ٢٩، ٢، ١٠ – ١١

إخناتون كان "رجلا نشوان بالله"، وكان عقله يستجيب فى إحساس عجيب، وتمييز للشواهد المنظورة عن وجود الله حوله، وكان يستولى عليه الجذب إلى حد معتدل فى إحساسه بجمال النور الأبدى، الذى يشمل الكون، إن أشعته تحوطه، إنه يصلى: "أدعو أن تقر عيناى كل يوم بمشاهدته"، فى هذا الضوء الذى يتعرف هويته، أكثر من مرة، تغمره البهجة فى نشوة يندر وجودها إلا عند أصحاب التجارب السامية.

إن إخناتون كان أول "مغرد" فى التاريخ، وعن وعى، وعن تدبر بطريقة نسقية عقلية، ظفر بمكانته، ثم وضع نفسه وجها لوجه أمام التقاليد، ونحاها جانبا، إنه لا يرجع لأية أساطير، ولا إلى أية حكايات قديمة مقبولة على نطاق واسع، عن حكم الآلهه، أو إلى عادات قدستها القرون والحقب، إنه يرجع فقط إلى الحاضر، وإلى الشواهد المنظورة عن حكم إلهه، شواهد تحت أبصار الناس جميعا؛ أما عن التقاليد، أينما كانت، فقد حاول أن يلاشيها، هذا، ولم يكن للعقيدة الجديدة إلا اسما واحدا فى العمارنة، إنه كثيرا ما يطلق عليه "التعليم"، وهذا "التعليم" ينسب فقط إلى الملك دون سواه، ولايوجد سبب يدعو إلى الشك فى هذه النسبة، ولكن يجب أن ندرك ماذا كان يعنى هذا "التعليم" فى حياة الشعب المصرى ككل.

هنا يوجد شعب أوقف فيض حياته إلى الأمام فجأة، على الرغم من قوة دفعه التى تكاد لا تقاوم، ثم يحول إلى مجرى آخر، لقد أغلقت الهياكل التى قدستها ذكريات آلاف السنين، وطرد الكهنة، وصودرت القرابين، وموارد المعابد، ونبذ النظام القديم فى كل مكان.

أصبحت الردهات التى كان لها كل إجلال، والتى كانت تتردد فيها أصداء أفراح الجماهير،أصبحت ردهات المقابر هذه، خاوية، ولم يكن بوسع أى إنسان مهما علا قدره،أن ينطق بأسم أوزوريس، وفى حضرة قاضى الصلح فى المحكمة أصبح يتحتم الآن ألا يحوى اليمين القديم إلا اسم آتون، كل هذا أحدثته ثورة إخناتون، ماذا كانت النتيجة؟

لابد أن جماعات من الكهنة المتذمرين والمستفيدين من النظام القديم، قد مزجوا غضبهم بأصحاب بعض الحرف غير الراضين عن هذا التغيير الذى أحدثه اخناتون، نذكر منهم:

الخبازين الذين لم يعد يوجد لديهم مصدر لرزقهم من بيع كعك الشعائر فى أعياد المعبد، **والصناع** الذين لايجدون السبيل لبيع تعاويذ الآلهة القدامى عند بوابة المعبد، **والمثالين المرتزقة**، الذين تقع تماثيل أوزريس التى صنعوها، تحت كوم من التراب فى كثير من المراسم المنهارة على عروشها، **وقاطى أحجار الجبانة**، الذين وجدوا أن شواهد قبورهم التى زخرفوها زخرفة رخيصة بمناظر من كتاب الموتى، قد أبعدت، من الجبانة، **والجند** فى الأيام التى كان عليهم تنظيم المواكب إلى المعبد، **والأطباء** الذين حرموا من كل رأسمالهم فى التجارة، فى شعائر التعزيم، التى استخدموها بنجاح منذ أيام أقدم الملوك، قبل ذلك بألفى سنة، **والرعاة** الذين لم يعودوا بعد، يجسرون على وضع رغيف وجرة من الماء تحت الشجرة المائلة، وبهذا ينجون من غضب الآلهة التى تسكنها، والتى يمكن أن توقع محنة المرض على أهل المنزل فى سورة غضبها، **والفلاحين** الذين كانوا يخشون نصب صورة لأوزريس فى الحقل لطرد الأرواح الشريرة.

فى وسط هذا التذمر الذى شمل فئات كثيرة، أقام هذا الملك الشاب "إخناتون" فكرته ودعوته الجديدة.

وعندما نضع حركة أخناتون أمام خلفية صورة من تذمر شعبى كهذا، ونضيف إلى الصورة أيضا المعارضة السرية التى تقوم بها طوائف الكهنة العتيقة، وهم حزب "آمون" الذين لم يهزموا بعد، واللفيف العسكرى القوى الذين استولى عليهم عدم الرضى من جراء سياسة الملك المسالمة، فى آسيا وعدم اهتمامه بالإدارة الإمبراطورية والمحافظة عليها، فإننا نبدأ فى تبين شىء من الفردية القوية فى هذا الذى كان أول زعيم عقلى فى التاريخ، لقد كان حكمه أقدم عهد لحكم الأفكار، بغض النظر عن حالة ورضى الشعب.

لقد كان "اخناتون" بذاته، أول ثورى فى العالم، وكان مقتنعا تمام الاقتناع بأنه كان يمكنه أن يعيد صوغ عالم الدين والفكر والفن والحياة بالعزم المنيع الذى لديه، أن يجعل آراءه فى الحال نافذة عمليا.

وعلى هذا قامت مدينة العمارنة الجميلة، فى بحر من التذمر، والمدهش أن مثل هذا الرجل يقدر له قيام لأول مرة فى الشرق، وخاصة فى مصر.

ولقد كانت وفاة "إخناتون " بعد حكم استمر سبعة عشر عاما بداية النهاية لديانته، بعد أن اختفى المبشر الذى نظمها وفرضها معا، انطلقت بهذه الوفاة قوى ردود الفعل ضدها، وتحول خليفته الثانى " توت عنخ أتون" (أو الصورة الحية لآتون إلى الديانة القديمة بعد أن غير اسمه إلى " توت عنخ آمون" (أي الصورة الحية لآمون) ، كما عرف أنه عاد إلى العاصمة الأصلية طيبة، حيث دفن هناك، وبدأ اضطهاد ذكرى " إخناتون" منذ العهد الملكى " لحور محب" خليفة " توت عنخ آمون" فدمرت أسماؤه الملكية وصورة، كما أزيلت أسماء إلهة " أتون" من كل مكان به، ومن المثير أن هذه النقمة كانت موجهة بصفة رئيسية ضد شخص صاحب العقيدة الآتونية ، أكثر مما كانت ضد الإله " آتون" نفسه.

وقد بلغ الإعجاب ببعض الباحثين فى عصر إخناتون إلى تمجيده تمجيدا كاد يرفعه إلى درجة الأنبياء، لأن هذا الرجل العظيم استطاع فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ البشرية أن يكتب ما كتب ، ويدعو إلى ما يقرب من الوحدانية، وكان لأناشيده وآرائه أثر على من جاء بعده من الشعوب، فهو صاحب أول محاولةجادة لتقديم مفهوم توحيدى حقيقى مع إلغاء دور كل الآلهة العديدة الأخرى وعقائدها المقدسة، وهى محاولة لم يكن مقدرا لها أن تنال أى فرصة للنجاح حتى ولو فرصة مؤقتة، ما لم تكن قد تمت بمبادرة من شخص يعتلى قمة السلطة فى البلاد، مما أتاح إمكانية هذا التغيير، وهو الملك نفسه، أمنحوتب الرابع أو "إخناتون"

ويحمل البعض الآخر عليه متهما إياه بالضعف وتضيع الإمبراطورية، بل ومنكرا عليه أن أناشيده أو آراءه كانت مبتكرة، وأراد البعض الثالث أن يثبت أنه لم يكن لإخناتون أى فضل، بل أن الأمور فى ذلك العصر كان يجب أن تأخذ الطريق الذى أخذته سواء فى الدين أو الفن[1]

والرأى عندنا أن إخناتون فيلسوف ومفكر من خير فلاسفة ومفكرى العالم القديم، وإذا كانت المرارة قد تملكت نفسه، بعد أن رأى الصعاب فى نشر دينه الجديد، فأهمل شأن الحرب، فربما كان لذلك أسبابه، وربما كان أيضا عن عقيدة راسخة فى المحبة والإخاء بين الناس، وكراهية منه للقتل والتخريب.

---

(١)

Jaos, Lx vIII (1948), 91ff.

ولا نغالى إذا قلنا أن إخناتون يعد عظيما من عظماء التاريخ، ليس فى مصر وحدها، وإنما فى تاريخ العالم، وأن صيحته كانت دعوة جديدة فى آذان العالم لم يكن الناس قد تهيأوا لها إذ ذاك، ومهما قيل عن تفكك الإمبراطورية فى عهده، فهذا أمر آخر، ولو ساء لنا أنفسنا الآن عما كان يجنيه تاريخ مصر بوجه عام، إذا كان إخناتون ملكا من الملوك المحاربين، فلا نلبث أن نجيب على أنفسنا بأن نتيجة حروبه كان مآلها دون شك إلى الزوال، كما حدث لمن جاءوا بعده، أما أناشيده وآراؤه فهى باقية وستظل باقية كإحدى مفاخر الحضارة المصرية، وسيظل اسم إخناتون وثورته الدينية أسماء لامعة فى تاريخ الفكر فى العالم.